الاغتراب في شعر علي الفزاني

د/ مسعود عبد الله مسعود الميساوي

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأصلّي وأسلّم على عبده ورسوله محمد المبعوث رحمة للعالمين، الذي أكمل الله له الدين وأتمّ عليه وعلى أمته النعمة.

أمّا بعد:

فهذا بحث عن موضوع الاغتراب في شعر علي الفزاني, وقع اختياري عليه لما تمثله ظاهرة الغربة والاغتراب والنفي والضياع والكآبة والحزن في شعر الفزاني من أهميةٍ, وتطور الاغتراب المكاني عنده إلى الاغتراب عن الذات, والاغتراب الاجتماعي والنفسي, إلى الاغتراب الثقافي, وقد جاءت خطوات البحث على الوجه الآتي:

المقدمة, تعريف الاغتراب لغة واصطلاحا, أسباب الاغتراب وتطوره, مظاهر الاغتراب في شعر الفزاني وتطورها, وهي:

1- الاغتراب عن الذات 2- الاغتراب الاجتماعي 3- الاغتراب الثقافي أو الفكري

وعرض الباحث نماذج تمثّل هذه الظاهرة, ثم كانت خاتمة البحث, وقد حوت أهم النتائج التي توصل إليها الباحث, وألحق بالبحث قائمة المصادر والمراجع التي اعتمد عليها.

الغربة لغة واصطلاحا:

غ ر ب الغربة (الاغتراب) تقول: تغرب واغترب بمعنى فهو غريب, وغرب بضمتين والجمع الغرباء, والغرباء أيضا الأباعد, واغترب فلان إذا تزوج إلى غير أقارب[1], وجاء في كتاب العين: الغُرْبَةُ الاغتِرابُ عن الوطن, وغَرَبَ فلانٌ عَنَا يَغْرُبُ غَرْباً أي تنحى، وأغربته وغَرَّبْتُه أي نحيته, والغُرْبَةُ: النَّوَى البعيد، يقال: شقت بهم غربة النوى[2], وربما يكون الاغتراب مأخوذاً من الغراب؛ لأن العرب كانت تتشاءم به, ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب[3] وَتَزْعُمُ العرب أَنَّ الغراب دَال عَلَى الْفِرَاقِ, قَالَ الشَّنْفَرَى:

فقال غُرَابٌ لاغْتِرَابٍ مِنَ النَّوَى وبانة بين مِنْ حَبِيبٍ تُعَاشِرُهُ[4]

أما في الاصطلاح: فقد تباينت آراء الكتّاب ووجهات نظرهم حول مفهوم الاغتراب, فمنهم من يراه حالة نفسية واجتماعية تسيطر على الفرد فتجعله غريباً, ومنهم من يراه شعوراً يمكن أن يراود أي إنسان في سائر المجتمعات والثقافات، فحيثما يوجد

إنسان فرد يشعر بتفرده وتميز شخصيته، ولا يستطيع التجاوب أو التفاعل مع الأوضاع والظروف السائدة في المجتمع، أو البيئة التي يعيش فيها، فينشأ لديه بالنتيجة شعور بالاغتراب.

لمحة عن الشاعر علي الفزاني

ولد الشاعر العربي الليبي علي عبد السلام أبو بكر الفزَّاني في السابع والعشرين من شهر فبراير عام 1936م[5] بقرية صرمان لأبٍ كان قد ترك موطنه الأصلي تحت ظروف قاسية من جنوب ليبيا, وتحديداً من بلدة إدري إحدى القرى التابعة لمنطقة فزَّان, وإليها نُسب, وقد نشأ علي الفزاني فقيراً فعاش طفولة فقر وحرمان وبؤس وشقاء، وهو ما أكده الشاعر بنفسه قائلا: " وطفولتي لم تكن جيدة بأيّة حال، طفولة حرمان، وفقر ورزايا عبر عالم مليء بالتعفن والكراهية"[6]؛ لأن الفترة تُعَدُّ من أصعب حقب التاريخ الليبي؛ إذْ كانت البلاد تعجُّ بالحوادث الجسام, فالمستعمر الدخيل أحكم قبضته على سائر أرجاء البلاد، ولاسيما بعد أن أُعدم شيخُ المجاهدين عمر المختار, وما تبع ذلك من حوادث, مثل: قيام الحرب العالمية الثانية التي كانت ليبيا مسرحاً لبعض حوادثها, وما أعقب ذلك من تقسيم البلاد إلى ولايات ثلاث، ثم إعلان الاستقلال سنة 1951م، كل ذلك صاحب علي الفزَّاني في طفولته، وأدّت تلك الحوادث إلى فقر مدقع بالأهالي وإلى التسول والتشرد وتفشّي الأوبئة والأمراض، وقد وصف الفزاني حياة الفقر والبؤس التي عاشها في طفولته قائلاً :

الزاد دمعٌ والمبيت: مغارة — إنَّ الضياع مذلة للقصَّـر
ذهبَ الربيعُ فما رأتْ أيامه — فرح الربيع ولا زهتْ بالمنظر
ذهب الشباب فما ارتوتْ أحلامه — من فتنة أو رشفة من كوثرِ[7]

وقد تلقى علي الفزاني تعليمه بكتّاب جامع سيدي زكري[8] بالمدينة نفسها, غير أن الأمور لم تستقم له في مدينة صرمان، الأمر الذي دعاه إلى تركها والارتحال إلى مدينة بنغازي أواخر عام 1947م[9], واستقر بها حتى وفاته في السادس والعشرين من شهر سبتمبر سنة 2000م, وقد خلّف الفزاني جملة من الدواوين, وهي على الترتيب: رحلة الضياع, أسفار الحزن المضيئة, قصائد مهاجرة, الموت فوق المئذنة, مواسم الفقدان, الطوفان آت, دَمِي يقاتلني الآن, القنديل الضائع في المدن الوثنية, طائر الأبعاد الميّتة, أرقص حافياً, وفضاءات اليمامة العذراء, سبعة من هذه الدواوين تمتلئ بالغربة والنفي والضياع والحزن والكآبة؛ لأنّ الشاعر عاش تجارب ذاتية أحاطت به، وبأبناء جيله بسبب حالة البؤس والاضطهاد والنكسات المتوالية, ومن أول تفاعله مع الحياة كانت بدايته مع رحلة الضياع التي نشأت عن واقعه وتأثره بما قرأه في شعر معاصريه وترسَّخت, بعد أن اصطدم بواقع جعله يركب زورق الأحزان ليواجه هذه الحياة[10], وقد مثّلت هذه الدواوين الصورة التي نضجت فيها رؤيته للحزن والاغتراب، فجلّها تبحث عن رؤيته لمظاهر الحزن والضياع والاغتراب، فقد "عاش تجارب ذاتية أحاطت به، وبأبناء جيله بسبب حالة البؤس والاضطهاد والنكسات المتوالية ومن تفاعله مع الحياة"[11], فقد صور

الفزاني الواقع بكل ما فيه من إيجابيات ونجاح وسعادة, وبكل ما فيه من شرور وآلام وقبح وشقاء وبؤس, وغلبت عليه النظرة التشاؤمية, حيث تجلت ظاهرة الاغتراب في شعره بعمق واتساع نتيجة الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي المتأزم في الوطن العربي, فالنفي والغربة والضياع كان إحساساً عاما يشيع في أعمال معظم الشباب فيما عُرِف بالشعر الحر، حتى ليمكن القول بأنه يوشك أن يكون لهؤلاء الشعراء فلسفة يفسرون من خلالها أغلب ما تقع عليه حواسهم من وجوه الحياة, وإحساس الشاعر بالضياع ليس شيئاً جديداً على الشعر العربي الحديث قبل ظهور حركة الشعر الحر، بل كان جانباً مهماً من جوانب الرومانسية عند الشاعر الذي يعجز عن مجاراة الحياة، فيشعر بالوحدة والغربة والضياع، وبخاصة حين يشيع حوله صمت الليل وكآبته[12].

ظاهرة الاغتراب وتطورها:

إنّ ظاهرة الاغتراب ارتبطت قديماً بالابتعاد المكاني عن الوطن، أي الإحساس بالغربة نتيجة المسافة التي تفصل بين الإنسان ومجتمعه وأصدقائه وأصحابه وأحبابه ومعارفه وعالمه, فهذا الشاعر الجاهلي امرؤ القيس عاش تجربة الاغتراب والبعد عن الوطن والديار, فقد أمضى شطرا من حياته شريدا هائما على وجهه, وبعد فترة من الزمن تذكّر أهله فقال:

تذكّرت أهلي الصّالحين وقد أتت ... على حَمَلي خُوصُ الركاب وأوجرا
فلما بدت حوران في الآل دونها ... نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا
تقطع أسباب اللبّانة والهـــوى ... عشية جاوزنا حماة وشيزرا[13]

لكن معنى الاغتراب مع التطور الذي حدث ويحدث أصبح يعني فقدان القيم والمثل الإنسانية والخضوع لواقع اجتماعي يتحكم فيه الإنسان المتسلط, ويستعبد أخاه الإنسان، فيشعر الإنسان بالانفصال والانعزال عن الآخرين وحتى عن ذاته, فربما يكون سبب الاغتراب العسف والقمع السلطوي الذي يمارس على الإنسان, أو بسبب الظلم الاجتماعي الذي تعيشه الطبقة الفقيرة، وتمارسه عليها الطبقات القوية والغنية, فقد " قالوا: الغنى في الغربة وطن, والفقر في الوطن غربة"[14] وللاغتراب أسباب كثيرة منها: الشعور بالوحدة والعزلة وعدم الرضا عن العلاقات الاجتماعية، والسخط على طبيعة الوظيفة، والإحساس بالضعف أو بعدم الثقة وغير ذلك[15], فتكون بذلك ظاهرة الاغتراب قد أخذت معنى جديداً يتمثل في ما يشعر به الإنسان المعاصر من مظاهر الاضطهاد والظلم والتعسف الذي وقع عليه من تسلط الحاكم, أو ما يشعر به من فقر وبؤس وشقاء, فيحس كأنّه غريب ولو كان يعيش داخل وطنه, وقد تجلت هذه الظاهرة في الشعر العربي المعاصر بعمق واتساع نتيجة الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي المتأزم في الوطن العربي, فالنفي والغربة والاغتراب والضياع والعزلة التي يعاني منها الإنسان المعاصر، وشدة الحاجة إلى معرفة الذات الإنسانية، وهوية الإنسان ومكانته، وعلاقاته بنفسه وبالآخرين من حوله, جعلته يستشعر بالغربة والضياع نتيجة

لحرمانه من ممارسة حقوقه المشروعة، فنشأت عنده حالات من الاغتراب, لذلك اتسعت ظاهرة الاغتراب لتشمل أنواعاً أخرى.

أنواع الاغتراب:

إن ظاهرة الاغتراب أصبحت ظاهرة إنسانية لا ترتبط بمكان أو زمان, فحيثما يوجد الإنسان قد يكون هناك اغتراب بمختلف صوره وأشكاله ومدلولاته وأسبابه التي لا يمكن حصرها, فالإنسان يحس بالاغتراب ولو كان يعيش داخل وطنه؛ لأنّه يرفض أشياء ويتحداها ويختلف مع أكثر من أسلوب يسيطر على الحياة, وإن كان في بعض الأحيان لا يملك إلا الصمت, فإنّه في أحيان أخرى يملك أن يصرح أو يبوح أو يئن, وهذا الاغتراب له أنواع كثيرة منها: الاغتراب المكاني والزماني والنفسي والاجتماعي والثقافي أو الفكري, وسأتحدث بإيجاز عن أهم مظاهر الاغتراب في الشعر الليبي المعاصر وهي: الاغتراب المكاني, اغتراب الذات, الاغتراب الاجتماعي, والاغتراب الثقافي أو الفكري .

أولا- الاغتراب المكاني:

تعد ظاهرة الابتعاد عن الوطن أو الاغتراب ظاهرة قديمة في الشعر العربي, فقد وجدت منذ زمن بعيد, حيث تحدّث شعراء عصر ما قبل الإسلام عن الاغتراب المكاني, وربما ظاهرة الوقوف على الأطلال تمثل ظاهرة الاغتراب عند شعرائها وبخاصة أصحاب المعلقات, وخير مثال على ذلك معلقة امرؤ القيس التي مطلعها:

قفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزل بسِقطِ اللّوى بينَ الدَّخول فحَوْملِ
فتوضح فالمقراة لم يَعفُ رسمهاَ لما نسجتْها من جَنُوب وشمالِ
ترى بَعَرَ الأرْآمِ فـي عَرَصاتِها وقيعانها كأنه حبَّ فلفـل[16]

وكذلك كان الاغتراب عند الشعراء الصعاليك, فهذا الشنفرى يقول:

أقيموا بني أمي ، صدورَ مَطِيكم فإني إلى قومٍ سِواكم لأميل
ولي دونكم أهلونَ سِيْدٌ عَملَّس وأرقط زهلول وعَرفاء جيأل
هم الأهل لا مستودع السّرّ ذائع لديهم ولا الجاني بما جرّ يخذل[17]

والأمثلة على الاغتراب المكاني كثيرة, يضيق المجال عن حصرها هنا, وفي العصر الحديث عاشَت طَّائفة من أبناء الأمَّة العربية غربية بعيدة عن أوطانها, حيث ألجأتها الظّروف السياسيّة والاضطهاد إلى هجرة أوطانِها، فعاش أبناؤها غُرباء وهم يَجولون بِقلوبهم وعقولهم ونفوسهم وأفكارهم في صدر الحضارة الإسلاميَّة, التي حفظت بطون الكتب كثيراً عنها، ومنها ما لا يزال ماثلاً للعيان في صمت جريح وأسَى لاذع, يشهد أنَّ العرب أمة عظيمة كانت مِلء سمع العالم وبصره، لكنها تحيا الآن حالة من التخلُّف والجمود، والبُعد عن الأَخذ بالمنهج الإسلاميّ كاملا, وقد عرف هذا الصنف من الشعر في هذا العصر بشعر الغربة والحنين إلى الوطن, وخير ما يمثل ذلك, شعر المهجر بقسميه الشمالي والجنوبي, فقد خرجت من بلاد الشام قوافل النازحين تبحث عن الحياة الحرة الكريمة التي كبلها المستعمر، وتحول هؤلاء الشعراء والأدباء في بلاد المهجر إلى بلابل مغردة تشدو بروائع

الأشعار المعبرة، وكان للحنين إلى الوطن وذكرياته نصيب ملحوظ في شعرهم, فقد عاش هؤلاء الشعراء والأدباء في المهجر بعيدين عن وطنهم الأمّ يعانون آلام الغربة وويلاتها, فكان من الضروري أنْ تظهر هذه النزعة في شعرهم, حيث غلب على شعرهم طابع الشوق والحنين إلى أرض الوطن في بلاد الشام, وتألُّمهم لما يصيبه ورغبتهم في نهضته، ومسايرته لركب الحضارة والتقدم **والرقي, وفي هذا** يقول رشيد أيوب عن إحساسه المرير بالغربة وحنينه إلى وطنه:

جلست بقرب شباكي أردِّد طِيبَ ذكراك
وأطوي بيد أحلام كبت فيها مطاياك
وفيها النفس حائمة ترفرف فوق مغناك
تفجر في الدجى برق تلاه مدمعي الباكي
أتاركتي أخاَ سهر متى عهدي بلقياكي
إذا خطرتِ على بالي أو لقائي وإياك
ورحت أُعاتب الدنيا جلست بقرب شباكي[18]

أما في الشعر الليبي المعاصر فقد حاول الشاعر الكبير علي الفزاني السير في نهج خاص تميز به عن غيره من شعراء عصره, حيث نظم من خلال تجربته الشعرية شعراً ينم عن الضياع والغربة والاغتراب متأثراً في ذلك بالواقع الذي يعيش فيه، فقد مرت على المجتمع الليبي فترة كان يمتلئ فيها بالسوداوية والتشاؤم واليأس والانغلاق والانزواء عن التيارات الحديثة من اجتماعية وثقافية وسياسية وفكرية واقتصادية، وقد صبغت تلك الفترة العلاقات الاجتماعية بطابعها الخاص, وصبغت الأدب والفن الليبيّن بالطابع نفسه, فساد الحزن والألم والعذاب والحيرة واللوعة والتشاؤم الأغنية الليبية، وسادت السوداوية واليأس القصة والأدب بعامة[19] وهذه الأشياء السوداوية يلحظها الدارس لشعر الفزاني بكل سهولة ويسر، بل أنها تمثل ملمحاً رئيساً في تجربته الشعرية الخاصة؛ لأن رؤيته للحزن والاغتراب والضياع قد اكتملت ونضجت، فعندما اغترب الفزاني وارتحل عن وطنه ليجد الأمن والاستقرار، أدرك مرارة البعد، فصار حفنة من السأم يجهضه المساء من حانة إلى حانة، ولم يعد يتذكر من الوطن سوى تلك الحكايات القديمة، فقال مصوراً ضياعه وغربته في قصيدته (**فارس ليس من تكساس**):

أنا على الطريق حفنة من السأم
يجهضني المساء
من حانة لحانة أنا شريد !
الشرق في ملامحي حكاية قديمة
وشهر زاد والخليفة الرشيد في دمي، بلا حريم[20]

ثانياً- اغتراب الذات:

ينشأ اغتراب الذات عن التناقض بين الإنسان والعالم الخارجي, بين الواقع والخيال, بين ما هو عليه وبين ما يحلم به, بين ما يملكه وبين ما يطمح إليه, بين

نظام العالم ونظام تفكيره, بين عالم الآخرين وعالمه الخاص, فينفصل المرء عن ذاته الإنسانية الحقّة, أو عن طبيعته الجوهرية, وبهذا المعنى يحمل ذلك التعبير الكلي لإنسانية الإنسان[21], حيث يُعد الفزاني من أكثر شعراء الرومانسية في ليبيا تحدث عن وحدته وغربته واغترابه وعن واقعه, يقول في قصيدته (**منديل وداع ممزق**):

يا صاحبي .. بالأمس كنت يافعاً صغيرا !
أحب وجه جارتي التي لها ظفائر القمر
وكانت الطفولة ..
مراتع حبيبة جميلة
والنأي .. لم تكن نغومه كئيبة الإيقاع
ورحلتي قصيرة .. ولم يشب مصيرها الضياع
واليوم .. ما أنا ؟ .. أنا
ممزق ومتعب الجفون والضمير
محطم كموجة مع المساء تبعثرت على الصخور !
تطير بي، وبك
الشوق في عيون صاحب يودعك !
لكنني يا صاحبي .. وحيد !
لا حب لي
لا شوق لي
سوى الحروف في حقائبي ، وحفنة من العذاب والألم!![22]

إنه اغتراب بعيد الأغوار وعميق؛ لأنه يستبطن الذات, ويسبر أعماق الوجود بحثاً عن قرار وثبات, وفي مثل هذا التصور يبدو الحنين إلى الطفولة حنيناً إلى ميلاد عالم جديد بديل من
العالم الذي افتقدت فيه الذات موقعها ووجودها, والفزاني يزداد ألماً وحزناً في قصيدته (**حانة القلق**), حيث أخذ يسعى إلى تعميق إحساسه بالحزن والكآبة ورؤيته الفنية لذلك، فالأحذية التي ينتعلها صارت قطعاً ممزقة بسبب الفقر والبؤس والضياع، فيقول معبراً عن ذلك:

أحذيتي تمزقت ..... زجاجتي أحضنها كمرضعة
أثداؤها تنز بالصديد .. بالسموم مترعة
والشارع المضاء يلعق السكون
يمتصنا معه[23]

وحاول الشاعر أن يجد مكاناً يأوي إليه بعد أن تمزقت الأحذية التي يرتديها بسبب البؤس والضياع الذي " ازدادت درجته فصار يحتضن الخمر التي لجأ إليها، فكانت له مثل مرضعة لشدة ضياعه فيها، فزادته بؤساً؛ لأن أثداءها تنز بالصديد، ثم قدّم صورة الشارع في آخر الليل, حيث الأضواء خافتة والسكون الذي تأنس إليه

الملاهي لتؤوي السكارى والضائعين, هذه الحالة أججت فيه علامات التساؤل والاستنكار حتى استقر في نفسه الإحساس بأن وجوده ضياع في رحلة الحياة التي استوقفته على الأنين والسعال, فلم يعد قادراً على مصارعة آلامه"[24] لقسوة الحياة ومرارة الأسى والحزن فيقول في قصيدته (**غربة الموت والحياة**):

ألم أقل لكم ؟ .. ألم ؟
وجودنا ضياع
هذا أنا مُمّدد ، وهذه نهاية الصراع
أصابعي من وهني، لا تحمل اليراع
آه أيا مرارة الأسى ولعنة الأوجاع[25]

والفزاني يعيش اغترابه ويقتات بمشاعر التمزق والضياع؛ لأنّ الاغتراب صار قدره ومأساته وهو كل حياته وكل شعره كما يقول:

تغوص عبر عُمق ذاتك
تُمزق القناع, تهدم السدود
تمدّ في الظلام كفك النحيلة
ينهشها التنين
تصيح . . . آه . . . آه
ما أوحش الفراغ !
ما أتعس الغريب عبر ذاته![26].

ثالثا- الاغتراب الاجتماعي:

الاغتراب الاجتماعي " يعنَى باختصار شعور الفرد بالانفصال عن جانب أو أكثر من جوانب المجتمع كالشعور بالانفصال عن الآخرين أو عن القيم والأعراف والعادات السائـــدة في المجتمع أو عن السلطة السياسية الحاكمة إضافة إلى ما يصحب ذلك من إحساس بالألم والحسرة, أو التشاؤم واليأس وما يرافقه أحياناً من سخط أو تمرد أو نقمة أو ثورة"[27] وانتشار المفاسد وشيوع الكذب والنفاق والخلاعة واللهو وزيادة الفقر في المجتمع وكذلك كل مظاهر الظلم والقهر وفقدان العدالة الاجتماعية, والانسلاخ عن المجتمع والعزلة والعجز عن التلاؤم، والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع، وعدم الشعور بالانتماء نتيجة أزمة من الأزمات التي تصيب المجتمع في مراحل نموه وتطوره المتعاقبة تزيد من اغتراب الناس اغترابا يبعدهم عن الرضا لهذا السلوك, فالعالم الذي يعيش فيه الإنسان هو من صنعه، كما أن النظم السياسية والحضارية والاجتماعية هي الجوهر الاجتماعي الذي بلوره الإنسان الذي يتطلع دائماً إلى تحسين ظروف معيشته عبر المزيد من إشباع حاجاته المادية والعقلية، وعندما يشعر الإنسان بفقدان الأمل وبالألم وبمرارة الحرمان يجعله معزولا عن مجتمعه وبالتالي مغترباً عنه, وهذا ما يمكن ملاحظته عند الفزاني وبخاصة ديوانه (**قصائد مهاجرة**) الذي كان "حصيلة تشاؤم وحزن وشعور حاد بالاغتراب وعدم التواصل، وهي من ثم ملحمة

أحزان وصاحبها مثقف وأصيل في التعبير عن ذاته "[28] ومما يؤكد ذلك ما جاء في قصيدته (**نزيف القلب**) التي افتتح بها الديوان يقول:

بدماء القلب في ليل السهاد
وخيوط التبغ في وحدتنا عبر الليال
ودمار الروح يا أخت على درب المحال
بنزيف القلب في ليل السهاد
سطريها في جدار الدهر ذكرى ستعاد
وإذا لاقاك طفل ذابل العينين يقتات رماد
في بلاد الفقر والقهر .. في أي بلاد
فاقرئي ملحمة الأحزان هذي
اقرئيها
فهي إرث السندباد[29]

ويصور الشاعر واقع العرب وحالهم في قصيدته (قصائد مهاجرة) واصفاً واقعهم المعيش، وهو يعيش بين الأمل وخيبة الأمل، الأمل في مستقبل زاهر وغد مشرق, حيث يضرب لذلك مثلاً بمدينة حضرموت, تلك المدينة المتأخرة من جميع الوجوه، ربما يوحي اسمها بحضر الموت فيصفها بأنها مرتع الأحزان والذباب، ثم يردف ذلك بذكره الطوفان؛ لأمل في مستقبل زاهر وغد مشرق فيقول:

منذ أن حطّت على صدري ثقال الأمسيات
واحتواني صمت (بنغازي) الطويل
ضمني كالقبر في ليل الشتاء
في عظامي ينخر الفقر والبؤس المقيت
ويغطي السيل عاري بالمياه
ويعري السيل أحلام البيوت
ربِّ .. ماذا ؟
رجع الطوفان في الأرض الموات
رب : ماذا ؟ .. أتراها " حضرموت "
ترتع الأحزان فيها والذباب
ويمر النحل يوما من ذراها
ليموت ..[30]

ويرسم الفزاني في قصيدته (**العقم والكهولة**) صورة قاتمة لضياعه واغترابه, فهو مطارد من الجميع: القدر والذئاب والكلاب كلها تطارده كي تقضى عليه، فالبحار والعداة واقفون أمامه ليقتلوه حتى السنون تغتاله, فصور ذلك في صورة شعرية رائعة، فيقول:

يا ويلتا !
كهولتي على مشارف السنين تنتظر

بدايتي، نهايتي للعقم والضجر !
وددت يا صديقتي لو أنني عبرت لجّة الليال
وغصت عبر هوة الزمان والعصر
وددت أن .. لكنني ..
مطارد، مطارد قدامى الكلاب
وخلفي الذئاب والقدر
(البحر والعداة) الذل والعدم ![31]

ومع كل ذلك يسارع الفزاني إلى تعميق فكرة النفي والغربة والضياع، فيصورها في صورة وحش يعصر فؤاده، فيقول في قصيدته (**الموت في الضباب**):

أصيح: أيها الإله .. أيها القضاء والقدر
أريد أن أعود
أريد أن أمر
أريد أن يضمني قرار كونك السحيق !
أريد أن أنام في مجاهل المدى العميق !
أريد أن أنام
لأنني مللت
لأنني سئمت
سئمت وحشاً بربرياً يعصر الفؤاد
يُطيح جثتي على الطريق
فيستوي الظلام والضياء والغروب[32]

وتشتد حدة التشاؤم عند الفزاني، فيصور ذلك في قصيدته (**طريق الغضب**) التي كانت " ثمرة طبيعية لضياع الإنسان الليبي وغربته في مجتمع القهر والذل والجوع, حيث تسيطر قوى أكبر منه على حياته، فيزداد إحساسه بالغربة والضياع "[33] فيقول **الشاعر المغترب الطريد** :

يطحنه الفراغ عبر رحلة الوجود ..
يمضغه المقهى .. تواسى حزنه رسائل البريد
الشاعر المعذب البعيد
يموت في انتظار ما يريد
يمشى على النيران والجليد[34]

رابعا- الاغتراب الثقافي أو الفكري:

تواجه ليبيا كغيرها من الدول العربية الاختراق الثقافي الذي يساعد على نشر أفكار ومعتقدات قد تؤدي إلى فقدان وسلب الخصائص القومية المميزة لثقافتها, فالاغتراب الثقافي هو" شكل محدد من أشكال التغير الثقافي الذي يحدث في أي مجتمع تحت تأثير الاتصال بجماعات أو أفراد آخرين وهذا التأثير قد يتحول إلى غزو ثقافي متعدد الجوانب من شأنه الإغراق في قيم اجتماعية وثقافية غير ملائمة

مما يحدث اغتراباً ثقافيا"[35], ويتمثل الاغتراب في استعارة الأقطار النامية للقيم وأنماط الحياة السائدة في الدول الصناعية المتقدمة بدل تطوير القيم المحلية وأنماط الحياة الأصلية, وإشاعة قيم المستعمرين ولغاتهم على حساب القيم المحلية واللغة المحلية، وإهمال الثقافة القومية واستبدالها بالثقافات المغربة, فحين يتعلم طفل لغة أجنبية تبدأ بذور الاغتراب الثقافي في وجدانه, فالاغتراب الثقافي يتناقض مع من يتمسكون بالتراث, الهوية والانتماء وتمجيد الثقافة الوطنية التي تعد الحصن الحصين للذات العربية ومبعث كل نهضة لارتباطها بالقيم الدينية المقدسة والانتماء إلى وطن واحد يكون مصدراً لتوليد الشعور بالانتماء, الذي يعزز التمسك بالوطن في الشدة والرخاء، فالاغتراب لدى الإنسان العربي الذي يتمسك بهويته وثقافته الوطنية أو القومية, هو كل اتجاه يبتعد به عن هويته وثقافته، وهو كل ممارسة تدل على ابتعاد عن الهوية بكل مكوناتها اللغوية والدينية ، والتاريخية، ناهيك عن كونه شعورا وإحساسا بعدم الانتماء الثقافي.

إن كلّ ذلك احتقار للثقافة المحلية واستعلاء عليها وإيمان بعدم قدرة هذه الثقافة على تحقيق طموح علمي أو حضاري منشود, وقد أدى فهم الاغتراب على هذا النحو عند بعض المثقفين إلى الاحتماء بالتراث وتثبيته أصلا ومقياسا لقياس الانتماء إلى الأمة، كما جعلوا منه قاعدة لكل عمل سليم موصل إلى النجاح، و ليس ذلك خروجا عن جادة الصواب إذا لم يرفق بشيء من التطرف الذي يعمي الألباب عن رؤية الصالح والمفيد في كل وافد جديد, يضاف إلى ذلك تلك الفوضى الثقافية والاجتماعية التي أحدثتها الثقافة الوافدة على المجتمع العربي التي فرضت نفسها كثقافة للمجتمعات المسيطرة وهذه الثقافة التي أغرى بريقها مثقفينا فراحوا يلاحقون مصادر الإشعاع فيها دونما جدوى في تحقيق المراد مما أثر في روح مؤسساتنا الثقافية والتربوية والإعلامية, فلم تعد تنتج لنا قيما مدروسة وفق استراتيجية محددة, وإنما انحصر دورها في إعادة إنتاج قيم الثقافة المهيمنة في إحالة رمزية إلى أن تقدم المجتمع ومؤسساته إنما هو رهن باتباع ثقافة المجتمعات المسيطرة ومن ثم تقليدها فتغزو ثقافاتهم مجتمعاتنا فيحدث وجه من أوجه الاغتراب الثقافي، التي من أخطرها أن يغترب المرء عن تاريخه فلا يعود لهذا التاريخ مفعوله الكافي لخلق الشهامة وإذكاء روح الفتوة في الإنسان العربي وكذلك عناصر الثقافة الوطنية الأخرى من دين ولغة وغيرها من العناصر التي يؤدي تفعيلها إلى لم الشمل العربي وإعادة التوازن للعقل العربي الذي يغرق في شتى متاهات الفكر ويغترب يوما بعد يوم عن جوهر الرسالة المنوطة به على مستوى الوطن والدين والمجتمع والذات, ومن هذا الاتجاه كان الاغتراب ظاهرة ثقافية تؤدي إلى انتقال المجتمع وتحوله من طور الثقافة التقليدية إلى طور الثقافة الدخيلة الوافدة، كما أنّه يهدد النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ويظهر بوضوح في المؤسسات التربوية مثل: الأسرة والمدرسة والجامعة وعند الطالب والمعلم, وشعر علي الفزاني يمثل صدى لحالة اغتراب نفسية وفكرية أبعدته عن المجتمع, وجعلته يستشعر بشاعة الدنيا وقسوتها,

فهي لا تأتي إلا بالفجائع والمصائب, حيث كان الفزاني رافضاً لكثير من قيم المجتمع الليبي التي أصبحت لا تلبّي حاجة الإنسان الليبي المعاصر, فولّد لديه حالة من الحزن المزمن والإحساس القاتل بالاغتراب والنفي والضياع والعزلة, الأمر الذي دفعه إلى البحث عن الضوء والأسفار والحرية؛ لأنَّه أحسّ أنه أصبح مطارداً محاصراً حزيناً، تسخّر الأنظمة الحاكمة له كل وسائل الرعب والقتل, وتدس تحت وسادته المخبرين، فتعدّى الشاعر بذلك إحساسه بالغربة والضياع إلى "جدلية الصراع في المجتمع الذي أجهز على أمثاله، وأخذ يلاحق الفكر والفن الأمر الذي عمّق فجوة الحزن، بعد أن أضيفت الغربة الفكرية التي تمثل قمة الضياع عند الشاعر الذي تطارده السلطة للانقضاض على سلاحه الوحيد وهو الفكر والعلم "[36] وهذه بعض معاناة الشاعر حين يقول:

مطارد محاصر إلى غد .. إلى الممات
مصفّد ولات من قيوده انفلات
الصمت قيد
والبوْح قيد
والنار في القرار تأكل المزيد في القرار
لن ينتهي نضاله، وفي الضلوع ومضة من الشرار
لن ينتهي !
صديقتي
لأن شاعراً يُراعه يقدّس الفكر
مطارد ، محاصر إلى المدى من القدر ![37] [38]

وقد عاش الشاعر تجارب ذاتية أحاطت به وبمجتمعه الليبي من فقر وبؤس واضطهاد سياسي واجتماعي ونكسات متوالية، فعبر عن هموم الوطن والمواطن من خلال همومه الخاصة وأحزانه، فهو عندما يحدثنا عن الذي يتبعه كظله وكيف أنه فقير ومهان وحقير منذ ولد، فهو يحدثنا عن ظلام الحياة في ليبيا, ففي قصيدته (**بعد الصلب**) يبين لنا الفزاني كيف جرّب كل الطرق كي ينسى عذابه, فالحانات والعاهرات والسفر والرحلات والمغامرة كلها بلا فائدة, إذ ظل عذابه هو عذابه, وأيقن أنَّه سيظل يغني أشعاره مصلوباً، مع أن الأميرة **(ليبيا)** التي يغنِّي من أجلها لا تبالي وتتسلى بعذابه ودمائه[39] فيقول:

ظل يأسي .. هو يأسي .. وعذابي، كعذابي
يوم صلبي ..
يوم أن أعطيت للفكر شبابي !!
كلماتي، متعبات مرهقات
نغماتي : حائرات ثائرات
كل ما في داخلي، ينفي الحياة
ويراها نزعات تافهات.

ففي النص اصطدم الفزاني بواقع أليم جعله يركب زورق الأحزان ليواكب هذه الحياة ويواجهها، فأخذ يهمس للشعب الليبي بآلامه داعياً إياه إلى اليقظة والثورة وإذ جاءت دعوته خافتة بلا صراخ، فهذا أسلوب الشاعر الحقيقي الذي يدع الخطابة الصارخة للخطباء، وعندما

يكرر الشاعر تساؤله الأليم ثم ماذا ؟ ثم ماذا؟ فإنما يقول للشعب الليبي أقوى الكلمات الحاثة على الثورة بلغة الشاعر المفكر, وهكذا يستمر الشاعر في تعميق فكرة الغربة والاغتراب والنفي والضياع، وكأنه عقد حلفاً مع الغربة والاغتراب والحزن والضياع حتى أصبحت هذه الأشياء تمثل جانباً مهماً من جوانب الرومانسية عنده, الأمر الذي جعله يعجز عن مجاراة الحياة، فيشعر بالوحدة والغربة وفي ذلك يقول:

الليل في مدينتي: ما أشنعه !

والجيل ذا، يا صاحبي ما أضيعه! (40)

وتحدث الشاعر الفزاني عن ضياعه وحزنه وعذابه في بعض قصائده، مثل قصيدته (**رسالة سمراء**) التي أحسّ فيها بمرارة الحزن وقسوة الاغتراب تركته منكسر الجناح يصرخ في وجه الحياة يشكو ما عاناه من تمزق، فلم يعد يرى تلك المناظر التي تبدو في حقيقتها جميلة إلا بمنظار سوداوي, حيث سئم الشوارع المعتمة الأسوار, وما إلى ذلك من الصور التي ذكرها في قصيدته فيقول:

ما ألعن الزمان !
إذا غدا سآمة وغربة تمزق الوجدان
يا ولدي الإنسان ،
أنا سئمت هذه .. الأسفار
وهذه الشوارع المعتمة الأسوار
وهذه الحدائق التي ترضعها أنهار
وهذه الجبال ، والجليد من أنوفها ينهار
يا ولدي الإنسان
ما عاد في حقائبي سوى رسائل الأحزان(41)

لكن الفزاني يبدو كأنَّه سيَّد التعساء والفقراء والمعوزين المتعبين حتى بدت سمة الحزن والكآبة ظاهرة عليه من ذلك قصيدته (مواسم الفقدان) التي أوسم بها الشاعر ديوانه (مواسم الفقدان) منها قوله:

كان ما أعتى إلى القيد ، معادي!
كان ما أقسى الخسارة !
يا هوايا
وعلى باب المدينة
علقوا سفر الرواية
أعذريني .. أعذريني يا صغيرة

أعذريني ، فالهدية ..
صادروها، من جرابي، والحقيبة
وثيابي، وحروفي، والمتاعا
افهمي الآن الضياعا (42)

ولعل للفزاني بعد ذلك شعر كثير في الغربة والاغتراب

الخاتمة

الحمد لله في الأولى والآخرة، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد .... يمكن القول إنّ أهم النتائج في هذا البحث تتلخص في النقاط الآتية:

1- إن ظاهرة الاغتراب ظاهرة قديمة ارتبطت بالاغتراب المكاني أي بالابتعاد عن الوطن والأهل والأصحاب والأصدقاء وقد عانى الشعراء هذه الظاهرة منذ قديم الزمان.

2- إنّ ظاهرة الاغتراب في شعر الفزاني اتخذت شكلاً جديدا يتمثل في ما يشعر به الإنسان المعاصر من اضطهاد سياسي وظلم اجتماعي وتعسف وقع عليه من تسلط الحاكم أو ما يشعر به من فقر وبؤس وشقاء.

3- تجلت ظاهرة الاغتراب في شعر الفزاني بعمق واتساع نتيجة الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي المتأزم في الوطن العربي بعامة وفي ليبيا بوجه خاص.

4- تطورت ظاهرة الاغتراب في العصر الحاضر لتشمل أنواعا من الاغتراب منها: اغتراب الذات, والاغتراب الاجتماعي, والاغتراب الثقافي.

5- الحزن, النفي, الوحدة والعزلة, الكآبة, الضياع, القلق, والغربة أهم مظاهر الاغتراب بأنواعه, وإن شعور الإنسان المعاصر بهذه الأشياء جاء نتيجة لحرمانه من ممارسة حقوقه المشروعة, وإن الشاعر حاكى شعراء الغرب الذين ضاقوا ذرعاً بتعقيدات الحضارة الحديثة لانقطاع روابط المودة والحب والإخاء بين الإنسان وأخيه الإنسان.

الهوامش

(1) محمد بن أبي بكر الرازي, مختار الصحاح, تحقيق محمود خاطر, مكتبة لبنان, بيروت 1995م, ص 197.
(2) الخليل بن أحمد الفراهيدي, كتاب العين, تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي, دار ومكتبة الهلال, القاهرة, 4 / 410.
(3) ينظر, الجاحظ, الحيوان, تحقيق عبد السلام محمد هارون, دار الجيل, بيروت 1996م, 2/ 316.
(4) ينسب هذا لأكثر من شاعر فمنهم من ينسبه إلى الشنفرى وينسبه آخرون إلى كُثير عزة.
(5) وقع خلاف في تاريخ ميلاده، حيث يرى فريق أنَّه ولد عام 1935م, بينما يذهب آخرون إلى أن مولده
كان عام1938م ويرى آخرون أنَّ ولادته كانت سنة 1936م، وهو الأقرب إلى الصحة والصواب, وقد
أثبتُّ تاريخ ولادته محدداً باليوم والشهر زيادة في الدقة. ينظر, حسين مخلوف حوار مع الشاعر علي
الفزَّاني, مجلة الثقافة العربية, العدد الثاني, فبراير, 1996م, ص 70.
(6) علي الفزاني, الأعمال الشعرية الكاملة, ص 111.
(7) علي الفزاني, ديوانه دمي يقاتلني الآن والقنديل الضائع في المدن الوثنية, ص127.
(8) ينظر, عبد الله مليطان, معجم الأدباء والكتاب الليبيين المعاصرين,1 /309.
(9) ينظر, المرجع نفسه, ص 308.
(10) ينظر, ساسي سعيد رمضان, قضايا التشكيل في الشعر الحر في ليبيا, رسالة دكتوراه (غير منشورة), ص 25.
(11) المرجع نفسه, ص 25.
(12) عبد القادر القط, جريدة الحقيقة, العدد 1090, 3 مايو 1969م.
(13) امرؤ القيس, ديوانه, ضبطه وصحّحه مصطفى عبد الشافي, دار العلمية, بيروت, لبنان, ص 62.
(14) أبو هلال العسكري, الصناعتين الكتابة والشعر, تحقيق علي محمد البجاوي, ومحمد أبي الفضل إبراهيم, المكتبة العصرية, بيروت 1986م, ص 309.
(15) ينظر, إحسان عباس, اتجاهات الشعر العربي المعاصر, المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب, الكويت, الطبعة الأولى 1978م, ص 55.
(16) امرؤ القيس, ديوانه, ضبطه وصحّحه مصطفى عبد الشافي, دار العلمية, بيروت, لبنان, ص 22.
(17) الشنفرى, ديوانه, جمع وتحقيق إميل بديع يعقوب, دار الكتاب العربي, بيروت, الطبعة الثانية 1996م, ص 58.
(18) رشيد أيوب, ديوانه, أغاني الدرويش, المطبعة السورية, نيويورك, ص 42.
(19) ينظر, سليمان سالم كشلاف, كتابات ليبية, ص 197.
(20) علي الفزاني, الأعمال الشعرية الكاملة (المجموعة الأولى), المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان, طرابلس ليبيا, الطبعة الرابعة 1983م, ص 47.
(21) ينظر, اتحاد الكتّاب العرب, مجلة الموقف الأدبي, العدد 352, سبتمبر 2000م, ص 120.
(22) علي الفزاني, ديوانه رحلة الضياع, **دار الأندلس, بنغازي ليبيا,** 1966م, ص 36.
(23) المرجع نفسه, ص 156.

(24) ساسي سعيد رمضان, قضايا التشكيل في الشعر الحر في ليبيا رسالة دكتوراه (غير منشورة), ص 25.
(25) علي الفزاني, الأعمال الشعرية الكاملة (المجموعة الأولى), ص 257.
(26) المرجع نفسه, ص 40.
(27) سميرة سلامي, الاغتراب في الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري, دار الينابيع, دمشق, الطبعة الأولى 2000م, ص 151.
(28) حسين مخلوف, جريدة الحقيقة, العدد 1328, 7 فبراير 1970م.
(29) علي الفزاني, الأعمال الشعرية الكاملة (المجموعة الأولى), ص 201.
(30) المرجع نفسه, ص 227.
(31) المرجع نفسه, ص 117.
(32) المرجع نفسه, ص 160.
(33) أحمد عطية, في الأدب الليبي الحديث, **دار الكتاب العربي, طرابلس ليبيا,** ص 44.
(34) علي الفزاني, الأعمال الشعرية الكاملة (المجموعة الأولى), ص 205.
(35) فضل طلال العبري, الأمن الثقافي في الخليج العربي, دار هلال للنشر والتوزيع, القاهرة, الطبعة الأولى 2012م, ص 52.
(36) ساسي سعيد رمضان, قضايا التشكيل في الشعر الحر في ليبيا (رسالة دكتوراه غير منشورة), ص 26.
(37) علي الفزاني, الأعمال الشعرية الكاملة (المجموعة الأولى), ص 157.
(38) علي الفزاني, الأعمال الشعرية الكاملة (المجموعة الأولى), ص 157.
(39) ينظر, أحمد عطية, في الأدب الليبي الحديث, ص 31.
(40) علي الفزاني, الأعمال الشعرية الكاملة (المجموعة الأولى), ص 156.
(41) المرجع نفسه, ص 204.
(42) علي الفزاني, ديوان مواسم الفقدان، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان, طرابلس ليبيا, الطبعة الأولى 1977م ص 12.